**RIMAK** International Journal of Humanities and Social Sciences
ISSN: 2717-8293
Volume 5, Issue 6, November 2023

**Received:** 13/09/2023 **Accepted:** 10/10/2023 **Published:** 01/11/2023

# FRANCIS-CANS ORDER: BETWEEN HOLDING CITS ORIGIN AND REJECTING THE CHURCH ORGANIZATION

**Zakia KERBAL** [1]

Dr, Alger 2 University, Algeria

**Abstract**

I have studied in the previous article an interesting Subject entiteled "The personality of St.Francis of Assisi". The Spiritual the Oricain of the Francis-cans order". I have discussed in it about this Italian young man who belonged to the region of Ombria -in the Middle Italy-. He is a son of an important trader in this city. Francis lived the first years of this life beneficted of the money which was offered to him by his family. He brought all things which he desired and did not stop to participate to the festivals celibrated by his rich friends. After all this events, one day arrived when Francis decided suddenly to leave this beautiful life towards a meditation with a kind of modesty and imitating the Christ who encouraged humans to leave all their wealth and follow him.

In this article, I have discussed about the religious life of Francis of Assisi. In the first step, Francis requested to the pope Innocent III (1198- 1216) to accept his rule which was accepted by this first Christian leader between the years 1209 or 1210. After this important event, I have elaborates the different steps in the construction of which was known "Francis-cans order".

It is so important to say that despite this order, they went far from the spirit of the Christian principles which Francis insisted on it along his life, the Francis-can order remained one of the great religious order in the middle age.

In other way, the Christian church considered it as an efficient weapon to distroy the heretics who threatened the existence of this religious institution.

In addition to this, the Dominicans contributed to spread the Christians principle, and their role is also great in the effort of missionary.

**Key words:** Francis of Assisi, Innocent III, Religious orders, The Albigensis, Dominicans.

http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.26.1

[1] Histoireeduc@gmail.com

# هيئة الفرانسيسكان بين التمسّك بالأصالة ونبذ التنظيم الكنسي

**زكية كربال**

د، جامعة الجزائر 2، الجزائر

**الملخص**

تحدّثت في دراسة سابقة بعنوان "شخصية القديس فرانسوا الأسيزي؛ المنظّر الروحي لهيئة الفرنسيسكان"، والتي تمّ نشرها في مجلّة "أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية -عدد خاص- بوقائع المؤتمر العلمي الدولي الثالث – لبنان- 7/6 آذار 2023م، (ص ص. 408-420)، عن مسيرة فرانسوا الأسيزي قبل أن يصبح رجل دين. ذكرت فيه أن هذا الشاب من منطقة أمبريا Ombrie الواقعة في ايطاليا الوسطى. ينتمي لإحدى الأسر الثّرية في هذه المدينة. فهو ابن لأحد كبار التجار في المنطقة، اختصّ في تجارة مادة القماش. وفرّ الوالد لابنه كل أسباب الراحة والحياة الفاخرة. لكن بعد سنوات قضاها فرانسوا وهو ينعم برفاهية عالية، قرّر ذات مرّة أن يجرّب حظه بأن يصبح فارسا مغوارا، لكنه فشل في هذه التجربة العسكرية، ممّا ترك جرحا غائرا في قلب الشاب. بعد ذلك، عاد مرّة أخرى لتبني نمط حياته الأوّل القائم على التجارة، السهر والسمر. لكن، ما إن بلغ سن الشباب، تأثّر على ما يبدو بموجة الصحوة الدينية التي كانت تمرّ بها أوروبا آنذاك. وفي خطوة غير مسبوقة، قرّر فرانسوا التنازل عن كل المتاع الذي وفرّته إياه أسرته الثرّية، ورغب في العيش وفق الحياة الإنجيلية الأولى التي اعتمدها ياسوع المسيح –عليه السلاّم- متحدّيا بذلك سلطة والده الذي حاول جاهدا ابعاده عن ذلك النهج.

من خلال صفحات هذه الدراسة، فإنني تتبعت خطوات فرانسوا الأوّل منذ انتقل إلى لقاء البابا إينوسنت الثالث حاملا إليه القاعدة التي حرّرها لرفاقه، من أجل عرضها على سماحة هذا الزعيم الأوّل للكاثوليك، بهدف افتكاك موافقته بالسماح لهم بالقيام بعملية الوعظ، وذلك من أجل إحياء المبادئ المسيحية وسط الناس والتي يبدو أن كسوفا أصابها بسبب انشغال الأفراد بهموم الدنيا وبالخصوص الركض وراء المكسب المادي.

كما تحدّثت أيضا عن مختلف المراحل التي تشكّل المحطّات الأساسية بالنسبة لتأسيس وبناء هيئة الفرانسيسكان مع الوقوف عند التحدّيات المفروضة أمام هذه المنظومة، كالسماح للإخوة بالتعليم وهو العامل الذي رفضه فرانسوا، ذلك أن كان يخشى أن ينحرف الإخوة عن المبادئ الأصلية للحياة الإنجيلية وذلك من خلال اهتمام الرفاق ببناء الكنائس وتزيينها بالأيقونات واحتمال الابتعاد عن الحياة الصارمة التي تعتمد على النسك والزهد.

وتضمّن الموضوع أيضا الرفض القاطع الذي أبداه فرانسوا لتبني واحدة من القواعد الدينية التي كانت معروفة آنذاك في الجزء الغربي من أوروبا.

لكن، وعلى الرغم من اصرار فرانسوا الأسيزي الشديد للاحتفاظ بالأصالة الإنجيلية لهيئته، فإن الكنيسة الرومانية قد نجحت في آخر المطاف من تأطير وفرض الرقابة على هيئة الفرنسيسكان.

**الكلمات المفتاحية**: فرانسوا الأسيزي، إينوسنت الثالث، الأنظمة الدينية، الكاتار، الألبنجنسية.

**المقدمة**

يعدّ نظام الفرانسيسكان من أشهر وأقوى الهيئات الدينية في أوروبا خلال العصور الوسطى. في الواقع، جاء ميلاد هذه المنظمة الدينية البارزة في وقت شديد التعقيد بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية أو الكنيسة الرسمية. فأمّا على المستوى الداخلي، فإنّ آفات عديدة عرفت انتشارا رهيبا في مختلف الاوساط الاجتماعية، منها ظاهرة السحر والشعوذة، والتي كان لها أكبر الأثر على نفسية الأفراد. ليس هذا فحسب، بل إن الفترة شهدت أيضا استفحال أمر بعض الممارسات التي يعود تاريخها في الواقع إلى فترات سابقة، منها على وجه الخصوص آفة السيمونية التي أصبحت فيها مسألة شراء المناصب الدينية بالمال تحتل مكانة هامّة ممّا حال دون السير الحسن للوظائف الدينية على مختلف المستويات الكنسية.

عكّرت سماء أوروبا في هذه الفترة أيضا، حركات هرطقية خطيرة للغاية أرعبت وبشدة القائمين على شؤون الكنيسة. ضف إلى ذلك، عرفت مرحلة العصور الوسطى كذلك، الاهتمام المفرط بالكسب المادي دونما الاهتمام بالغذاء الروحي للإنسان، ممّا تسبب في انتشار فوارق اجتماعية رهيبة كانت الوقود الذي حرّك الثورات الاجتماعية التي تندلع بين الفينة والأخرى في أوروبا.

في هذا الظرف بالذات، الذي كانت خلاله أوروبا تشهد تقلّبات على مختلف الأصعدة، برز فرانسوا الأسيزي François d'Assise [(1)](Sabatier (Paul), 1970) الذي خرج نفسه من رحم هذا المجتمع البورجوازي ليقود هذا الشخص صحوة دينية رائدة، انطلقت من إيطاليا وتحديدا مدينة أمبريا Ombrie مسقط رأسه وانتشرت بسرعة البرق في مختلف أصقاع أوروبا.

بدأ فرانسوا حركة وعظ مسّت مختلف الشرائح الاجتماعية التي تأثرت أيّما تأثر بكلمات فرانسوا، وبسرعة غير متوّقعة فإنّ عدد أتباع هذا الشاب أخذ يتزايد يوما بعد يوم، واللافت للانتباه حقّا أن هؤلاء الوافدين أبدوا تعطشا منقطع النظير لخدمة "الرّب"، وكان الأثرياء منهم قد تنزلوا مثل فرانسوا سابقا، عن كل ثروتهم سعيا لتحقيق "الخلاص الأبدي".

ومن خلال هذه الدّراسة التي قمت بإنجازها، سأحاول الإجابة عن العديد من الإشكالات التي منها: كيف تمكّن فرانسوا الأسيزي، وهو الذي لم يكن يتمتّع بمستوى ديني عالي من التأثير على عقول الناس حتّى كوّن في فترة قصيرة قاعدة جماهيرية واسعة؟. كيف أدرك البابا إينوسنت الثالث ومستشاريه المقرّبين أن هذا الشخص الذي وقف أمامه سيكون القلب النابض لأهم هيئة دينية في أوروبا قدّمت خدمات جليلة للكنيسة على امتداد قرون من الزمّن ساعدتها بشكل جوهري وحاسم في تنظيف الساحة الأوروبية ممّا اعتبرته الكنيسة الرسمية الكاثوليكية "حركات هرطقية".

ومن الاشكالات التي طرحت نفسها أيضا، السعي لمعرفة أين تكمن "قوّة وقناعة فرانسوا الأسيزي الرّاسخة والمتمثلة في وفاءه، حتى لفظ أنفاسه، لمبدأ "الفقر" من أجل بلوغ صفاء الروح خدمة "للرّب" وحده" ولم يقبل هذا الأمر بديلا.

## 1- فرانسوا الأسيزي والبابا إينوسنت الثالث:

تعرّضت الكنيسة الرومانية في الغرب الأوروبي خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر والسنوات الأولى من القرن الثالث عشر الميلاديين لموجة من الاضطرابات المعقدّة والخطيرة في آن واحد، هزّت وبكل شدّة أركان هذه المؤسسة الدينية الهامة، بل إنّها كادت تعصف بها بالكامل.

في هذا السياق، شكّل استفحال ظاهرة شراء المناصب الدينية أو ما عرف باسم السيمونية (Sabatier (Paul), 1970) [2] Simonie تهديدا جسيما حال دون السير الحسن للمؤسسات الدينية المختلفة، من ذلك أنّ الرتب الدينية أضحت تباع بالمال، في هذا الصدد تبوأ رجال مراتب كنسية ولم يكونوا يفقهون في المسائل الدينية شيئا، وكانت النتيجة المباشرة لهذا الوضع المأساوي، أن تمّ تشويه صورة الكنيسة في عقول نبلاء القوم وبسطاءهم.

الحقيقة أن السلطات الكنسية العليا ممثلة في مؤسسة البابوية لم تكن غافلة عن هذا الوضع المتردّي، لقد حاول عدد من الباباوات الذين تعاقبوا على العرش الرسولي تنقية الأجواء الدينية من هذه الظاهرة السلبية، لكن محاولاتهم من أجل إصلاح الوضع باءت بالفشل الذريع. على أن الوضع لم يبق على حاله، فما فتئ يتغيّر بشكل لافت للناظر مع تولّي البابا إينوسنت الثالث (De Luz, 1690)[3] Innocent III (8جانفي 1198- 16 جويليا 1216م) العرش البابوي. يعدّ هذا الرجل من أشهر الشخصيات الدينية في العصر الوسيط، ينتمي لمنطقة سجني Segni الإيطالية. درس اللاهوت في باريس والقانون الكنسي في بولونيا الإيطالية. يتمتع بمستوى ثقافي عالي. سعى دون كلل أو ملل لإدخال اصلاحات جذرية على الجهاز البابوي وذلك بأن فرض على مختلف المنتسبين إليه بضرورة التحصيل العلمي العالي.

إنّ أوّل ما بادر به إينوسنت الثالث عند الجلوس على الكرسي المقدّس تصريحه الجاد المليء بالتهديد والوعيد لقطع جذور السيمونية في قوبه بضرورة "استعمال الحديد والنار لمعالجة هذا الجرح".

في الواقع لم تكن هذه الظاهرة الآفة الوحيدة التي أخذت تنخر مؤسسة الكنيسة، بل كان على البابوية أيضا محاربة مظاهر سلبية أخرى، إن الأمر يتعلّق بمجموعة من الممارسات التي اعتمد فيها الناس على السحر والشعوذة، ممّا انعكس سلبا على الحياة الاجتماعية في أوروبا (Sabatier (Paul), 1970)[4].

الواقع أن هذه المظاهر السلبية التي استفحلت في المجتمع الأوروبي خلال هذه الفترة من العصور الوسطى، قد كان لها أثر سلبي عليه، وبات من الضروري معالجتها قبل فوات الأوان. إنها لم تكن الوحيدة التي أثقلت كاهل البابا إينوسنت الثالث، الزعيم الروحي الأوّل للمسيحيين والذي وقعت على عاتقه أيضا مسؤولية تنقية الأجواء الدينية من كل ما من شأنه عرقلة أداء المسيحيين السير الحسن لشعائرهم الدينية.

لقد تميّزت هذه الفترة أيضا بالانتشار المرعب لحركات دينية سمّيت في لغة الكنيسة بالهرطقة Hérésie، كلمة تعني خطأ أو بدعة الخروج عن تعاليم الكنيسة الرومانية الرسمية. في هذا السياق، شكّلت الحركة الكاتارية Catharisme تهديدا فعليّا على وجود الكنيسة ذاته، عرّفت انتشارا رهيبا في عدد من أصقاع أوروبا، منها على وجه الخصوص فرنسا، إيطاليا، ألمانيا ليمتد تأثيرها إلى مدينة روما، العاصمة الروحية للمسيحيين الكاثوليك ذاتها.

دعا الكاتار لأفكار مختلفة تماما على تلك التي كانت سائدة، إنهم يقولون بوجود إلهين، واحد يمثل الخير والآخر يجسد الشر، لا يؤمنون بكل الأسرار المقدّسة التي اعتمدتها الكنيسة الكاثوليكية.

ضف إلى ذلك فإنهم يحاربون ظاهرة الزواج والإنجاب ويدعون إلى الانتحار زيادة على أفكار أخرى (Charles, 1986) [5] اعتبرتها الكنيسة سمّا قاتلا يستلزم الأمر منع تطبيقها على أرض الواقع مهما كلّف ذلك من تضحية على المستويين البشري والمادي.

لم يبق الباب إينوسنت الثالث مكتوف اليدين أمام هذا الشبح الخطير الدي يهدّد الأسس التي قامت عليها الكنيسة الكاثوليكية، بل إنه دقّ ناقوس الخطر والذي دوى صوته في كامل العالم المسيحي، ذلك بأن أعلن في شهر مارس عام 1208م حربا صليبية واسعة النطاق ضد الكاتار أو الألبجنسية Albigeois –نسبة لمدينة ألبي Albi الواقعة جنوب فرنسا-، ولم تأخذه بهؤلاء شفقة أو رحمة (Roquerbert, 2002)[6].

في هذا الوقت بالذات والذي كان فيه البابا في قصره باللاتيران Latran منشغلا بهده الملفات الساخنة، وصل إلى هناك بين عامي 1209 وصيف 1210م، الشاب فرانسوا الأسيزي وكان برفقته إحدى عشرة مرافقا (Sabatier , 1939)[7]، وقد حمل ابن أمبريا معه القاعدة La Règle التي كتبها لإخوته من أجل عرضها على سماحة البابا ليصادق عليها حتى تكون بمثابة ميثاق يجبر كل من ينتسب لهذه الهيئة الالتزام بها. ومن هذه المبادئ الأساسية، أن يتنازل كل شخص يرغب في الالتحاق بهيئة، على الأملاك التي بحوزته بتوزيعها على فقراء القوم. دعا فرانسوا أيضا إلى ضرورة اكتفاء الإخوة برداء واحد وبسيط يتمثّل في قميص مرقع يتم ربطه بحبل وقماط، ولا يحق لأحد امتلاك ثوبين أو أكثر.

دعا فرانسوا اخوانه أيضا إلى ضرورة اعتماد كل واحد على نفسه وذلك باعتماد حرفة يدوية على أن يكون عملا شريفا، ومن لا يملك حرفة، يجب أن يسعى لإيجاد عمل. وإن الهدف من العمل حسب فرانسوا، ليس جمع المال، لكن أن يصبح الإخوة قدوة للآخرين، ويظهروا للجميع أن الإنسان الصالح هو من يعوّل على نفسه (Sabatier , 1939) [8].

ومن لأهمية القول أن مضمون القاعدة كان بسيطا، فهي تتكون من مقاطع مأخوذة من الكتاب المقدّس – الإنجيل- زيادة على ما أضافه فرانسوا من مبادئ تخص العمل اليدوي واهتمامات أخرى لرفاقه (Ibidem)[9].

في الحقيقة، لم يكن هذا اللّقاء الأوّل الذي جمع فرانسوا الأسيزي بسماحة البابا إينوسنت الثالث ليثلج صدر الشاب، ذلك أن الزعيم الروحي الأوّل للكاثوليك أصابه الاشمئزاز عقب رؤية هذا الشاب، فلا جسمه النحيف ولا هندامه قد أثار الغبطة في نفسية البابا، فكان يبدو له فرانسوا أقرب إلى المتسوّل منه إلى شاب متدين. فلم يرغب بسماع ما قد جاء ليعرضه عليه. لكن، على الرغم من البرودة التي طبعت جوّ اللّقاء الأوّل بين البابا وفرانسوا، فإن الحدث لم يمر دون أن يترك هذا الشاب الإيطالي شعورا غريبا في نفسية إينوسنت الثالث الذي أحس بأن "قوة عجيبة" كانت تجلبه لهذا القادم من أمبريا (Sabatier (P.), p. 36)[10].

وفي اليوم الموالي لهذا اللّقاء، روى الباب إينوسنت الثالث حلما مفاده أنه في ليلة اليوم الذي التقى فيه فرانسوا الأسيزي، وبينما هو نائم، رأى في حلمه، في رواية أقرب للخيال منها للواقع، أن قصر اللاتيران، مقّر البابا، كاد يهوي، لولا تدخل فرانسوا الذي منع وقوع الكارثة، حينها فقط أدرك البابا أن هذا الشاب إنسان "مبارك"، فطلب لقاءه ثانية.

لقد فتح حلم البابا أبواب اللاتيران على مصراعيها لفرانسوا ورفاقه، ذلك أن هذه الجماعة الشبانية وقفت ثانية أمام سماحته، لكن ليس قبل أن يخضع أفرادها للتفتيش الدقيق والمساءلة أيضا من طرف رجال الكنيسة للتأكّد من هويتهم، لأن الظرف الذي كانت تمرّ به أوروبا آنذاك كان حرجا جدّا، ذلك أن الساحة الأوروبية ملغمّة بتفاقم ظاهرة الهرطقة. وبعد التأكّد من هوّية الزوار، بدأ الحديث مع البابا وحاشيته، لقد ألّح (Sabatier, Op.Cit., P.100)[11]

الطرف الكنسي على ضرورة أن ينضوي فرانسوا وأتباعه تحت لواء الأنظمة الدينية التي كانت في الساحّة كالنظام البندكتي وكذلك السسترسياني Cistérciens(Sabatier, Op.Cit., P.100)[12]، لكن فرانسوا رفض وبشدّة هذا العرض، وكان ردّه أنّه يحيا على النمط الرسولي الأصيل، ولا يقبل عنه بديلا. وأمام هذا الحمّاس الفيّاض لإحياء النمط الإنجيلي الأوّل، لم يكن أمام البابا من خيار إلاّ منح موافقة شفوّية على القاعدة التي عرضها عليه فرانسوا، وفي نية البابا على المدة البعيد. استغلال هذا الإحساس لخدمة الكنيسة الذي لمسه عند هذه الجماعة، في محاربة الهراطقة (Ibid., p. 107)[13]، كما أبدى البابا أيضا موافقته على أن يواصل فرانسوا ورفاقه عملية الوعظ بشرط أن يحصلوا في البداية على موافقة رجل الدين الذي يسيّر المنطقة التي يعيشون فيها. ومن جانب آخر، طلب البابا من فرانسوا أن يعيّن مسؤولا أعلى على الهيئة، وهو بمثابة لسان حالها، من شأن القائمين على الكنيسة الرسمية للتعامل معه في كل ما يهم هذه الهيئة الناشئة، وعلى الفور، وافق الرفاق على شروط البابا وعينوا فرانسوا رائدا لهم. عقب املاء كل الشروط على فرانسوا وجماعته، كلّف إينوسنت الثالث، الكاردينال-القديس بول Paul- بأن يكّلل –بالفرنسية Tonsurer- رأس كل فرد من هذه الجماعة، إشارة لإنتماءهم لهيئة دينية.

بعد انتهاء كلّ هذه المراسيم، ركع فرانسوا أمام سماحة البابا احتراما وتقديرا لمقامه السامق، وعرفانا له على قبول القاعدة التي عرضها أمامه، وفي نفس الوقت وعده بالخضوع الكامل لسلطة روما، وما كان على إينوسنت من جهته إلاّ مباركة هذه المجموعة، إيذانا بميلاد هيئة دينية جديدة من رحم البابوية (Chesterton (G.K., SD)[14].

هكذا شكّل هذا اللّقاء الذي تمّ في قصر اللاتيران بين سماحة البابا وتائبي أسيز Pénitents d'Assise حدث غير مسبوق ونقلة نوعية في مسيرة هذه المنظومة الدينية. إن افتكاك موافقة البابا على نشاط أفرادها يعدّ بحق تكريسا رسميا وفرجا عظيما لفرانسوا الذي كابد الصعاب من أجل تحقيق هذا الحلم، والذي كان ممنوعا عليه بالأمس القريب. لكن، يبدو أن مشاعر السرور لم تكن الوحيدة التي راودت نفسية فرانسوا ورفاقه، فإلى جانبها، تعايش في قلب فرانسوا الألم والحسرة على فقدان الحريّة. مهما يكن من أمر هذه الأحاسيس المتناقضة، فإن فرانسوا ورفاقه غادروا قصر اللاتيران وشدّوا الرحال للعودة إلى الديار بين عام 1210 والأشهر الأولى من عام 1211م.

واللافت أن هذا الموكب العائد من اللاتيران قد حظي حيثما نزل بحفاوة منقطعة النظير. من جهة أخرى، أبدى العديد من الأفراد الذين شاهدوا الموكب رغبة قويّة وشوقا للالتحاق بالهيئة (Sabatier , Op.Cit., PP.126)[15].

## 2- فرانسوا الأسيزي ونظام "كلاريس" Les Clarisses:

هكذا، لم يمرّ وقت طويل عن تكريس البابوية قبولها لهيئة فرانسوا الأسيزي، حتى ذاع صيت الوعظ الذي كان يقوم به هذا الشاب الإيطالي في الأوساط العامّة، وذلك بفضل قدرته الفائقة على اقناع الناس بضرورة العودة إلى المبادئ المسيحية الأولى، والإقلاع عن الركض وراء الكسب المادي فحسب. لقد امتدّت كلمة فرانسوا الهادئة لتغازل قلوب الإناث أيضا. وفي هذا السّياق تعدّ الآنسة كلير Claire من أشهر الفتيات التي امتثلت بحق المبادئ المسيحية الأصيلة لفرانسوا. أصلها من مدينة أسيز أيضا، تنتمي لعائلة نبيلو وثريّة اسمها سيفي Sciffi. ولدت كلير بين عامي 1193 و 1194م، وحينما بلغت سن السادسة عشر أو السابعة عشر من عمرها، وصل إلى مسامعها الوعظ الذي كان فرانسوا يلقيه على الناس، فبدأ حلم يراودها بأن تلحق بركب التائبين وتعيش زاهدة وناسكة، وأن تتنازل دون ما تردّد عن حياة الرفاهية التي عاشت في كنفها. حتى ذلك الحين فرّت من منزلها ليلا بين يومي 18و 19 مارس عام 1212م وبرفقتها

قريبة لها تدعى بسيفيكا Pacifica والتحقت الشابتان بموقع في أسيز يسمّى بورتيونكل Portioncule حيث استقبلهما فرانسوا بغبطة كبيرة. ولكن سرعان، ما نقلهما إلى دير البندكتيات الواقع على بعد ثلاثة كيلومترات من مدينة أسيز أين قضتا بعض الأشهر، وكانتا مكلّلتا الرّأس. وبعد فترة قصرة التحقت بالشّابتين آنسة أخرى اسمها أجناس Agnés، شقيقة كلير، وهي في سن الرابعة عشر من عمرها. هكذا، بدّأت السيدّات الثلاث، حياة جديدة قائمة على الرّهبنة والعيش البسيط في كنف روحاني مهيب. لكن الأمر لم يمرّ بردا وسلاما على كلير وشقيقتها، ففي اليوم الذي تلى غياب كلير اكتشف الأب الأمر، فاستشاط غضبا. لم يضيّع لحظة بل خرج على جناح السّرعة، وأخذ يقتفي آثار ابنتيه، وعندما بلغ الدير حيث تقيمان، أخذ يصرخ وينادي عليهما لكنّهما لم تصغيا له.

وحينها قرّر استعمال القوّة. في هذه الأثناء أطلّت عليه كلير من الشبّاك الذي يحيط بالدير ورأسها منزوع الشعر، حينئذ أدرك الأب ومن معه أنّ الوقت قد فات ولم تعد البنت ملكا لأسرتها.

أمّا أنياس، فقد كان عليها تحمّل كلّ شحنة الغضب التي بقلب والدها. إنّها تعرضت لضرب شديد، وذكر المؤرّخ جوبري (Gobry (Ivan), SD)[16] Gobry أنّ صلوات أختها كلير هي الوحيدة التي أنقذتها من مصير مشؤوم، لقد حدث ما لم يكن في الحسبان، فبينما انهال عليها والدها بالضّرب سقطت الطّفلة أرضا ولم يعد المعتدون قادرين على حملها فتركوها أرضا وغادروا المكان، لتنقذها أختها وتعيدها إلى كنفها. هكذا انفرج الوضع وانتهى مسلسل مطاردة الأب لابنتيه والذي أعاد للأذهان السيناريو نفسه الذي شهدته أسيز سنوات قليلة قبل هذه الأحداث (Sabatier , Op.Cit., PP.67)[17]، بطلاه فرانسوا ووالده.

هكذا انتصرت كلير ومن معها في فرض إرادتهنّ، وبدعم من فرانسوا تأسّس نظام كلاريس Ordre des clarisses[18] (Dalarun , 2002) الذي أخذ اسمه من كلير التي كابدت الصعاب من أجل أت تتبوّأ السّيدات، تلك المكانة الدينية. وقد زوّد فرانسوا هذا النّظام الجديد بقاعدة ضمّنها مجموعة من المبادئ على غرار هيئة الذكور، لكن النسخة الأصلية لهذا الميثاق طالها الضياع.

على الرّغم من ذلك، تبيّن الرّسالة التي بعث بها فرانسوا للآنسة كلير بأنّه ناشدها لاعتماد مبدأ "الفقر" كأساس لابديل عنه (Dalarun (. , p. 30)[19].

الظاهر أنّ فرانسوا لم يتوقّف عند هذا الحد في تحقيق نجاحاته، إذ أنّ موهبته اللاّمحدودة في طلاقة اللّسان قد أحدثت انقلابا حقيقيّا وصحوة كبيرة في المجتمع آنذاك.

في هذا السّياق، حدث في يوم من الأيام وبينما كان يقوم بعملية الوعظ في احدى المدن، أن أحدث ذلك انطباعا مذهلا وسط سكان المدينة، إلى حدّ أن ذلك سبب في انفجار حقيقي بأن أدّى برجال هذه المدينة ونسائها وحتى أطفالها إلى الخروج مسرعين يتوسّلونه أن يقبلهم في نظامه. وإن كان ذلك المطلب غير ممكن فكّر في تحرير قاعدة سمح له من خلالها الأشخاص من الجنسين، دون ترك العالم الدنيوي، بأن يخضعوا لنظام موافق، وأن يتّحدّوا مع نظام الإخوة، هذا الأخير الذي بدوره يعدهم بالحماية. وقد فرضت هذه القاعدة على المنتسبين إليها التزامات محدّدة أهمّها عدم حمل سلاح هجومي إلاّ إذا كان الأمر دفاعا عن الكنيسة الرومانية، العقيدة المسيحية والأراضي التابعة لها. وقد وافقت البابوية على هذا المشروع عام 1221م .

**3- من هيئة تائبي أسيز إلى نظام الفرنسيسكان:**

هكذا، وبعد فترة قصيرة مرّت عن اعتراف البابوية بالقاعدة التي حرّرها فرانسوا، برزت ثلاث فروع هامة، فرع للذكور، آخر للإناث والثالث ضّم أولئك الأشخاص الذين كانوا يحيون على النمطين الدنيوي والديني معا. إن هذا الوضع الجديد يبيّن بما لا يترك مجالا للشك، أن فرانسوا الأسيزي كان بارعا جدّا ويمتلك قدرة عالية لإقناع الناس من خلال مواعظه البسيطة في الظاهر والعميقة في الجوهر وهو ما كان كافيا لتجنيد تلك الأعداد من المنخرطين الذين ينتمون لمختلف الشرائح الاجتماعية. ومن جانب آخر، يكشف هذا الأمر عن تعطش الناس للعودة إلى المبادئ الروحية الأصلية والتي عرفت تراجعا مخيفا في المجتمع الأوروبي حينذاك، بسبب الركض وراء المكسب المادي دون الاكتراث أحيانا حتى بالأخلاقيات المسيحية.

اللافت للانتباه حقّا، أن مؤسسة الكنيسة ممثّلة في البابوية بصفتها الهيئة العليا، كانت تتابع عن كثب شديد تطوّر الحركة الدينية التي يقودها فرانسوا خوفا من انحرافها عن مسارها المتفق عليها سابقا، ولم يعد الوضع قابلا للانتظار أمام زيادة عدد المنخرطين فيها. فكان من الضروري التدخل لتأطير وكذا هيكلة تلك الأعداد للسبب المذكور أعلاه، وكذا الحيلولة دونما استقطاب الهراطقة الكاتارية لعناصر من الهيئة الناشئة. في هذا السيّاق دعي فرانسوا خلال مشاركته في مجمع اللاتيران الرابع الذي انعقدت أشغاله عام 1215م إلى ضرورة الانضواء تحت لواء واحدة من الانظمة الدينية التي كانت قائمة آنذاك وبالخصوص، البندكتية، السسترسيانيو والأوغسطينية (John (B.D),, 1940)[20]، لكن فرانسوا ردّ على هذا الطلب بالرفض القاطع. ليس هذا فحسب، بل إنه رفض أيضا العرض الذي تقدّم به القديس دومنيك St.Dominique الذي حضر بدوره فعاليات المجمع، مفاده صهر الهيئتين في نظام واحد وهما، الدومنيكان والفرنسيسكان.

مهما يكن من أمر تعنّت فرانسوا وعدم استعداده للتنازل قيد أنملة عن المبادئ التي وضعها لهيئته، فإنه وبعد مرور سنتين عن مجمع اللاتيران، شكّلت سنة 1217م، بحق علامة فارقة في مسيرة هيئة الزعيم الأسيزي، ففي هذه السنة، وخلال انعقاد جمعيتها والتي حضرها خمسة آلاف شخص –أخ- تم وضع أسس لنظام حقيقي من شأنه أن يؤطّر هذه الهيئة الدينية، لقد تم استحداث مقاطعات من أجل هذه الهيئة، إضافة تقرّر توسيع نشاط الإخوة ليمتد من الوعظ إلى التبشير بالمسيحية وذلك لحمل الغير مسيحيين لاعتناق هذا الدين. كما أصبح لهذه الهيئة قائدا عاما، يتم تعيينه من طرف ممثلي مختلف المقاطعات، الذين من حقهم أيضا إقالته متى اقتضى الأمر ذلك. ويستوجب أيضا على مختلف العناصر المشكلةّ للنظام أن تكلب الإذن من هذا القائد العام قبل مباشرة عملية الوعظ. ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن خلال اللقاء أيضا تم تعيين الكاردينال أوجلينو Ugoline، "كاردينالا حاميا للنظام" Cardinal Protecteur de l’Ordre ، إنه إيذانا بوضع هذا النظام تحت السلطة والتبعية الكاملة للبابوية. وبعد سنة مرّت عن هذه الأحداث، وفي لقاء جمع في روما كل من فرانسوا، القديس دومينيك وأوجلينو تم الضغط على فرانسوا مجددا لقبول الانضواء تحت واحدة من الأنظمة الدينية السالفة الذكر، لكن دون جدوى (Op.Cit., p. 27)[21].

لكن الأوضاع لم تبق على حالها، وبدأت تأخذ وتيرة متسارعة، وتنذر بالخروج عن سيطرة فرانسوا. في هذا السياق، حدث في شهر جوان سنة 1218م، أن تم دعوة الذين يرغبون في الالتحاق بالهيئة إلى بيع كل شيء ومنح المال

للفقراء، عملا بقول المسيح:" اذهبوا وبيعوا كل ما تملكون، وامنحوا المال للفقراء ثم اتبعوني" (Op.Cit. P. , p. 40)[22].

وخلال هذا اللّقاء أيضا، والذي ترأسه أوجلينو، وقد حضره دومنيك، تقدّم عدد من الرهبان للمشرف على الاجتماع بالتماس مفاده إقناع فرانسوا بالتخلي عن قاعدته، ومنح الإخوة واحدة من تلك القواعد التي كانت تسير الأديرة الكبرى آنذاك، والتي تم ذكرها آنفا. لكن هذا المطلب لما تم عرضه على فرانسوا ردّ كعادته بالرفض القاطع، ولم يتعد ما وافق عليه هذا الشاب الأسيزي ادخال تعديلات شكلية على الهيئة دون غيرها.

وفي سنة 1218م أيضا، واجه فرانسوا وضعا غاية من التعقيد. ذلك أن الإخوة المبشّرين الذين تمّ ارسالهم سنة 1217م إلى ألمانيا والمجر قد تعرّضوا لصعوبات جمّة إلى حد أن عددا من الإخوة أضافوا لصلواتهم مقطعا هذا نصّه:" إلهي، احفظنا من هرطقة اللاومبارد ووحشية الألمان". وأمام هذ الوضع فإن أوجلينو أقنع فرانسوا بضرورة اتخاذ اجراءات فورية لحماية الإخوة من المضايقات وحتى من التعرّض للقتل أيضا، وذلك بأن فرض عليهم بأن يحملوا منشورا بابويا حيثما يتجهون، وهو بمثابة تأشيرة أمان لهم (Sabatier (. , p. 252)[23].

مع نهاية العقد الثاني من القرن 13م، حدثت تطوّرات حاسمة في مسيرة الهيئة الفرانسيسكانية، وخلال الاجتماع الذي عقدت أشغاله سنة 1219م، قرّر فرانسوا الأسيزي في الرابع والعشرين من شهر جوان أن ينتقل شخصيا إلى دمياط الواقعة في مصر، كأوّل محطة في حركة تبشير واسعة في ديار الاسلام، على أن يتوجه بعدها إلى الأراضي المقدّسة.

ومن الأهمية القول أن هذه الفترة كانت تشهد أحداثا عسكرية هامة تتمثل في الحروب الصليبية بين المسيحيين والمسلمين، وتعود أوّل حملة لها إلى سنة 1096م، وفي نية فرانسوا تحقيق ما عجز عنه السلاح وهو تنصير المسلمين (John, p. 29)[24].

لكن أثناء تواجد فرانسوا بالمشرق وهي فترة الغياب التي دامت حتى جويليا أو أوت سنة 1220م، استغل الكاردينال أوجلينو الفرصة لإدخال تغييرات هامة في التنظيم الذي وضعه فرانسوا. وإن أوّلها السعي لفرض القاعدة البندكتية على هيئة البنات المعروفة باسم "كلاريس". ليس هذا فحسب، بل حدث أيضا في الجمعية التي عقدت أشغالها في السابع عشر من شهر ماي من نفس السنة، أن تم فرض نظام جديد على الإخوة، لا يتماشى مع ذلك الذي أقرّه فرانسوا.

أمام هذا الوضع، فإن أحد الإخوة واسمه إتيان Etienne الذي يبدو أنه كان مخلصا لسيّده كثيرا، ذهب على جناح السرعة إلى عكا Acre حيث كان يتواجد فرانسوا يلتمس منه العودة على جناح السرعة إلى الديار لمنع تنفيذ مخطط الكاردينال. لم يتردد فرانسوا للاستجابة وفي طريق عودته إلى أسيز وقد وجد في إحدى المناطق أن أتباعه كانوا يقيمون في بيت فخم، فأمر الجميع على الحين بمغادرته وحتى أولئك الذين كانوا مرضى لم يشفق عليهم. وإن تصرّف فرانسوا راجع في الواقع إلى خوفه أن يعتاد الإخوة على العيش في رفاهية على حساب المبادئ المسيحية الأصلية التي وضع أسسها منذ البداية. لكن الإخوة لم يستسلموا للأمر المقضي، فطلبوا تدخل أوجلينو الذي بدوره أبلغ فرانسوا بأن ذلك المنزل هو في الأصل ملكا له وليس للإخوة، فاقتنع الشاب الأسيزي بذلك (Sabatier (. , Op.Cit., P.274)[25].

يبدو أن سنة 1220م، كانت حافلة بأحداث مفصلية بالنسبة للهيئة التي وضع أسسها فرانسوا. ففي الثاني والعشرين من شهر سبتمبر من هذه السنة، صدر مرسوما يقضي بضرورة أن يمرّ كل من يلتحق بهذه الهيئة الدينية بسنة

تجريبية، بالفرنسية تسمى Noviciat قبل أن يلتحق الشخص بشكل دائم بالنظام، كما نص المرسوم أيضا أنه لا يحق لمن انتمى بشكل نهائي للهيئة أن ينسحب ويلتحق بنظام آخر وإن فعل ذلك يرشق بالحرمان الكنسي , .) Sabatier ( Op.Cit., PP.279)[26].

هكذا، شكّلت هذه القرارات الهامة منعرجا مفصليا في تطوّر هيئة "تائبي أسيز"، ذلك أن هذه الاجراءات جعلتها تلتحق بركب الأنظمة الرهبانية الأخرى التي كانت تعرف في أوروبا. ومن الأهمية بمكان القول، أن الكنيسة وبعد محاولات عديدة انتصرت في الأخير على بسط سيادتها على هيئة فرانسوا الأسيزي. وأمام هذا الوضع، ما كان على هذا الأخير الاستسلام للأمر المقضي بعدما أدرك أن البساط قد سحب من تحت أقدامه. ولعل ما ضاعف من ألم فرانسوا أن عدد من الإخوة قد أبدوا استعداد كبير لقبول هذه التغييرات التي طرأت على الهيئة. أمام هذا الوضع لم يبق أمام أسيز إلاّ أن يتنازل عن زعامته للنظام لشخصية بارزة إنه بيتر كتاني Peter Catani، أما هو فقد انسحب إلى منطقة اسمها بوركيونكل، وهناك عكف على مراجعة القاعدة التي وضعها في السابق وقد ساعده في هذا العمل كتاني نفسه وأصدقاء آخرين.

مهما يكن من أمر، فإم السنوات الخمس الأخيرة من حياة فرانسوا الذي توفي في الثالث أكتوبر سنة 1226م (John R.H. Moorman (B.D), p. 55)[27]، قد تميّزت بمحاولات جريئة منه من أجل سدّ الطريق أمام كل محاولات الكنيسة الرسمية من أجل ادخال تغييرات على القاعدة الأولى التي وضعها لإخوانه، وإن فشل في ايقاف ذلك التيار الجارف، يكفيه شرفا أنه يعدّ الأب الروحي عن جدارة واقتدار لأهم نظام ديني في أوروبا خلال العصر الوسيط.

**الخاتمة:**

هكذا، شكّل نظام الفرانسيسكان علامة فارقة في المشهد الدّيني لأوروبا خلال العصور الوسطى، بمبادئ بسيطة في ظاهرها، أصيلة في عمقها، قرّر فرانسوا الأسيزي، عند بلوغ سن الشباب، ودون سابق انذار، رغب في التخلّي عن كل متاع الدّنيا وكأن صوتا بداخله يناديه بضرورة التنازل عن المادّيات، وتبنّي حياة قائمة على أسس روحانية سامية، واستطاع بعد جهد جهيد أن يضع أسسا لهيئة دينّية قوّية اعتبرت بمثابة اليد الطولة التي ضربت بها الكنيسة خصومها من أولئك الذين لقبوا في قاموسها بالهراطقة، بمعنى الخارجين عن طاعة الكنيسة الرّومانية الرّسمية.

وكان أوّل انتصار لفرانسوا يوم تمكّن من مواجهة كبرياء والده، إذ بتحديه السّافر لهذا الأخير، فإنه مزّق بداخله ذلك الرّباط القوّي الذي يربط الابن بالأب، وهو كله إيمان راسخ بربط العلاقة مع المسيح نفسه بتبّني المبادئ التي دعا إليها دونما سواها.

إنّ المعركة لم تكن على الاطلاق سهلة والمسلك كان مليئا بالأشّواك والعقّبات، لكن بعد مسيرة طويلة فإن فرانسوا جمع حوله العديد من الإخوان، قاسمه هؤلاء نفس القناعة الإنجيلية، هذه الأحداث الجديدة المتسارعة التي كانت تجري على الساحة احتوتها الكنيسة وتبّنتها وجعلت من الإخوان الفرانسيسكان اليد الطويلة التي ضربت بها أعداءها من الهراطقة.

ومن الأهمية بمكان القول، أنّ نشاط الفرانسيسكان لم يكن مقتصرا على تنظيف السّاحة في أوروبا فحسب، بل امتّد إلى محاولة تنصّير المسلمين أيضا.

لقد أعطى فرانسوا مثلا لأتباعه، ذلك أنه تنقّل في العشرينيات من القرن الثالث عشر الميلادي إلى مصر ثم إلى بلاد الشّام والحرب الصليبية كانت مشتعلة، محاولة منه لتحقيق تنصير المسلمين، وهي المهّمة التي فشل فيها الصليبيون حسب اعتقاده. هكذا عبّرت هيئة الفرانسيسكان بحق عن الصحّوة الفعلية التي شهدها الغرب الأوروبي، ومن جهة أخرى أصبح للكنيسة الرّومانية منذ القرن 13م، جهازين دينيين قويين معّول عليهما، إنهما الفرانسيسكان والدّومنيكان الذين ظهروا في نفس الفترة تقريبا.

**الهوامش**

Sabatier, (. (s.d.). *Op.Cit., PP.279.*

Charles), L. (. (1986). *Histoire de l'inquisition au moyen âge. Origines et procédures de l'inquisition.* Jérôme Million.

Chesterton (G.K., ). (SD). *Saint François d'Assise. Traduit de l'anglais par Isabelle Rivière.* PARIS: librairie plon,.

Dalarun , (. (2002). *claire d'Assise 1193- 1253, dans dictionnaire du Moyen Age,.* Paris: P.U.F.

Dalarun, (. (s.d.). *Op.Cit., P.30.*

De Luz, (. (1690). *Histoire des Papes.* PARIS: Albin Michel.

Gobry (Ivan). (SD). *St. François d'Assise et l'esprit Franciscain.* PARIS: du Seuil,.

Ibid. (s.d.). - *Ibid., P.107.*

Ibidem. (s.d.).

John (B.D),, M. (1940). John R.H. Moorman (B.D), The sources for the life of S. Francis of Assisi. *Manchester University Press,*, 27.

John R.H. Moorman (B.D). (s.d.). *Op.Cit., P.55.*

John, R. M. (s.d.). *Op.Cit., P.29.* op.cit.

Montaubin, (. (2002). *Simonie, dans dictionnaire du Moyen Age.* paris: PUF.

Op.Cit., P. (s.d.).

Op.Cit., P. (s.d.).

Roquerbert, (. (2002). *Histoire des Catheres. Hérésie, croisade, inquisition du XIe au XIVe Siècle.* Perrin.

Sabatier (P.). (s.d.). *Op.Cit., P.36.* 1939.

Sabatier (P.), O. C. (1939). *Op. Cit.*

Sabatier (Paul). (1970). *Sabatier (Paul), Vie des. François d'Assise, trente-neuvième édition.* paris: Fernand Nathan.

Sabatier (Paul). (1970). *Vie des. François d'Assise, trente-neuvième édition.*

Sabatier , (. (1939). *Op.Cit.* paris: PUF.

Sabatier , (. (s.d.). *Op.Cit., PP.126.*

Sabatier , (. (s.d.). *Op.Cit., PP.67.*

Sabatier, (. (s.d.). *Op.Cit., P.100.* 1939.

Sabatier, (. (s.d.). *Op.Cit., P.274.*

Sabatier, (. (s.d.). *Op.Cit., PP.252.*